

الباب الأول

الحروب في الجاهلية والإسلام

الفصل الأول

الحروب قبل الإسلام

كانت أسباب الحروب قبل الإسلام كثيرة متعددة ، وترجع في الحقيقة إلى حمية الجاهلية ^(١) ، التي كانت تغطي على عقول الناس في هذا العصر (عصر ما قبل الإسلام) .

والناظر في ثنايا التاريخ يجد حروبا قامت بين العرب وبين الفارسيين والرومانيين ، وكان سببها الأول هو التوسع ، وبسط النفوذ والسلطان ، وكثيرا ما كان النهب والسلب والسبي مقصداً من المقاصد التي كانت تبعث على إشعال نار الحرب بين الناس .

وكان العرب كثيرا ما يتنازعون ويتقاتلون على الماشية أو المراعي أو المياه . وهناك سبب آخر كان من أجله يتنافس الناس في فن الحرب ، وهو إظهار الفروسية للفرد أو القبيلة ، وكان من عادة الشعراء أن تلهج ألسنتهم بمدح الأبطال والافتخار بهم . وتكريمهم بالشعر الجميل الذي يظهر شجاعتهم وحسن بلائهم ، وحبهم لقبيلتهم ، وولاءهم التام لبني جلدتهم .

(ويؤخذ مما وصل إلينا من الأخبار أن أيام العرب هذه كانت تتشابه بما وقع فيها من حوادث . ففي أول الأمر يحتدم النزاع بين بضعة رجال ، على أثر خلاف

(١) الحمية : الأنفة والكبرياء ويعبر بها عن الغضب الشديد الذي يجعل الجسم كالمحوم من شدة الغضب .

على الحدود . أو إهانة لحقت أحد الفريقين ، فما تلبث خصومة الأفراد حتى تستحيل إلى نزاع عام بين الجماعتين – وتتلقى نار الحرب مراراً بين المتناوئين^(١) إلى أن يخمدتها توسط قبيلة محايدة . فيوضع السلم في نصابه .

ولتسوية الخلاف يدفع من كانوا أقل قتلى دية العدد الزائد على قتلاهم من الفريق الآخر . أما ذكرى النزاع فلا تموت بانتهاء المعامع . بل تبقى بسالة الأبطال في مخيلة القوم على مر الأيام والأجيال^(٢) .

وهذه أمثلة من الوقائع الشهيرة في تاريخ العرب .

حرب البسوس :

وقعت هذه الحرب في آخر القرن الخامس الميلادي بين قبيلتين عريقتين هما بكر وتغلب اللتان تربطهما صلة القرابة .

وسببها : أن كليب بن ربيعة – الذي يقال فيه أعز من كليب وائل . لما اجتمعت إليه معد كلها وملكوه عليهم وجعلوا له تحية الملك وتاجه وطاعته – كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، وكان يقول وحش أرض كذا في جوارى فلا يصاد . وكذلك كان أبوه ربيعة قبله . وكان تحته جلييلة بنت مرة بن زهل بن شيبان وهي أخت جساس بن مرة الذي يسمى : ألحامي الجار .

وقد حمى أرضاً في أول الربيع لا يقربها إلا محارب .

وفي ذلك الوقت نزل بالبسوس بنت منقذ بن عمرو – خالة جساس رجل يقال

له سعد الجرمي وكان له ناقة اسمها (سراب) ترعى مع نوق جساس وهي التي

(١) المتناوذة : المعادة .

(٢) تاريخ العرب مطول ج ١ ص ١٢٠ .

ضربت بها العرب المثل فقالوا : أشأم من (سراب) ^(١) ، (وأشأم من البسوس) ^(٢) .
وفي يوم من الأيام خرج كليب يتعهد الإبل ومراعيها وكانت إبله مختلطة بإبل
جساس ، فنظر إلى (سراب) فأنكرها ، فقال له جساس وهو معه : هذه ناقة جارنا
الجرمي .

فقال كليب : لاتعد هذه الناقة إلى هذا الحمي .

فقال جساس : لاترعى إبلي إلا وهذه الناقة معها .

فقال كليب : لئن عادت لأضعن سهمي في ضرعها .

فقا جساس : لئن وضعت سهمك في ضرعها لأضعن سنان رمحي في لبتك ثم

تفرقا .

ونفذ كليب وعبيده ورمى ناقة الجرمي في ضرعها حينما رآها مرة أخرى في
مرعى إبله ، فولت ولها رغاء حتى بركت بفناء صاحبها ، فصرخ بالذل وسمعت
البسوس صراخه فذهبت إليه ورأت ما بناقته ووضعت يدها على رأسها وصاحت .
فهدأ من روعها جساس وصمم على أن يقتل كليباً وقتله فعلا ، ودارت رحى الحرب
بين القبيلتين واستمرت أربعين سنة ، حتى أنهكت قواهم ، وقضت على الكثير من
شبانهم وذوي البأس منهم . ولولا وساطة المنذر الثالث ملك الحيرة بين القبيلتين وعقده
الصلح بينهما ما وضعت الحرب أوزارها إلا بعد فناء أحد المتنازعين .

(١) مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٩٠ .

(٢) مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٥٤ وما بعدها .

يوم داحس والغبراء :

وهو من أيام العرب العظيمة له في أشعارهم مكان بارز ، وقد حدث هذا النزاع الطويل بين قبيلة عبس وأختها ذبيان .

والسبب الذي أشعل الحرب بين القبيلتين : هو أن قيس بن زهير العبسي وحذيفة بن بدر الفزاري تراهنا على (داحس) وهو لقيس ، و (الغبراء) وهي لحذيفة بن بدر بأن يجرياها وجعلا الرهان مائة ناقة ، ويكون منتهى الغاية مائة غلوة^(١) : والمضمار أربعين يوما ، ثم أرسلهما إلى رأس الميدان ، وكان في موضع الغاية شعاب كثيرة فأكمن حمل بن بدر أخو حذيفة في تلك الشعاب فتيانا من فزارة على طريق الفرسين ، وقال لهم : إن جاء داس سابقاً فردوه عن الغاية ، ثم أرسلوهما فخرجت الأنتى على الفحل . ثم برز الفحل عن الغبراء وسبقها فلما شارف داحس الغاية ودنا من الفتية وثبوا في وجهه فردوه حتى برزت عليه الغبراء .

وطالب قيس حذيفة بالرهن فأبى وادعى السبق للغبراء فثار غضب عبس . واندلعت نيران الحرب بين الفريقين في الشطر الثاني من القرن السادس بعد سلم البسوس بزمن يسير ، وظلت تظهر في فترات إلى أيام الإسلام فتخطت العشرات من سنه الأولى ثم عقد السلم بين القبيلتين بتدخل الوسطاء^(٢) . وفي هذه الحرب ظهرت شجاعة عنتر بن شداد .

(١) الغلوة : رمية سهم أبعد ماتقدر عليه ، والمضمار : غاية الفرس في السباق .

(٢) تاريخ العرب مطول ج١ ص ١٢١ .

يوم الفجار:

اشتهر هذا اليوم بهذا الاسم لوقوع الحرب في الأشهر الحرم بين قريش وأحلافهم من بني كنانة في جانب ، وهوزان في الجانب الآخر ، وقد حضر النبي - عليه الصلاة والسلام - هذه الحرب وله من العمر عشرون سنة .

وسببها : أن البراض بن قيس كان مطرودا من كنانة وكان من الحلفاء المقيمين بخارج مكة ، وكان حليفا لحرب بن أمية ، وكان فاجراً مدمناً للخمر ، فأوعز إليه حرب بن أمية بأن يغادر ضاحية مكة فالتجأ إلى ملك الحيرة اللخمي النعمان .

وكان النعمان يرسل في كل سنة قافلة محملة طيبا إلى سوق عكاظ لبادلته بالأدم والحبال وبرود اليمن ، وكان لابد من إجارة القبائل لتلك القافلة في أثناء مرورها بينها ، فعرض البراض بأن يسير بالقافلة إلى الحجاز وأن تجيرها كنانة ، وعرض عروة الرحال من هوزان أن يسير بها وحده إلى الحجاز ماراً بنجد بدلا من كلب مطرود من قبيلته ففضل النعمان عروة على البراض ^(١) .

حقد البراض على عروة وخرج في أثره يطلب الفرصة التي تسنح لقتله ووجده نائما ذات يوم تحت شجرة فقتله واستولى على القافلة .

ودامت هذه الحرب بين هوزان وقريش وحلفائها من كنانة أربع سنوات وانتهت بالصلح بين الفريقين ، ودفع الفريق القليل القتلى دية الفرق بينه وبين الفريق الآخر ، وصار يضرب المثل بأسم البراض مثلا للشر والفجور فصار يقال : (شر من البراض وأفجر من البراض) .

ونظرة إلى هذه الحروب وأسبابها ترىنا أن الناس - بحق - في حاجة إلى قوة

(١) كتاب حياة محمد لأميل درمنغم ص ٥٧ ، ٥٨ .

فوق قوة البشر تخرجهم من الفوضى ، وتقودهم إلى النظام ، وتخرج من صدورهم الضغائن والأحقاد حتى يعيشوا في سلام دائم . وتعايش سلمي كريم يعود عليهم بالخير والسعادة .

وما أكثر ما ينطبق عليهم قول فوستل دي كولانج : لا ينبغي أن نجعل أن الشعوب الفطرية تحاول أمرا معضلا إذا أرادت إنشاء جماعات منظمة ، وليس من الهين إنشاء صلة اجتماعية بين مخلوقات شديدة التفرق ، كثيرة التقلب ، مغالية في الحرية ، ولا بد لجمع كلمتها وتأسيس قواعد عامة فيها ، وتعويدها السمع والطاعة لأمرها ، وإذلال هواها لعقلها ، وعقل فردا لعقل جمهورها : من شيء أقوى من القوة ، وأجل من المنفعة . وأوثق من المذاهب الفلسفية ، وأثبت من العقود الملزمة . شيء يصل إلى كل قلب ويأخذ بكل شغاف .

هذا هو الإيمان ولا شيء يستوي على النفوس مثله ...^(١)

حقا إن الإيمان هو السبيل الوحيد لهداية البشرية إلى الصراط المستقيم ، صراط الله الذي أراد الله لعباده ؛ ليعمروا أرضه ويقيموا دينه فيها ؛ وينشروا السعادة والرخاء بين عباده عليها ...

وهذا محمد - صلى الله عليه وسلم - جاء بدينه الجديد والدنيا كلها في حاجة إليه ، والإصلاح الشامل للحياة ينتظره ، وكان بحق رحمة للعالمين .

(١) الشرع النبوي في الإسلام ص ١١ .